الكتاب الخامس

انتشار الهلنستية

من ٣٢٢ إلى ١٤٦ ق . م .

ثبت مسلسل للحوادث التاريخية

فى الكتاب الخامس

ق . م .

٣٤٨ – ٣٣٩ اسپيوسپوس رئيس المجمع العلمى .

٣٣٩ – ٣١٤ زنقراط رئيس المجمع العلمى .

٣٢٣ – ٢٨٥ بطليموس الأول (سوتر) يؤسس أسرة البطالمة فى مصر .

– ٣٢٣ بلاد اليهود تصبح ولاية سورية .

٣٢٢ – ٢٨٨ ثاوفراسطوس رئيس اللوقيون .

– ٣٢١ تقسيم إمبراطورية الإسكندر ؛ أولى مسرحيات مناندر .

– ٣٢٠ بطليموس الأول يستولى على أورشليم ؛ الفيلسوفان پيرون الإيليسى وأقراطيس الطيبى .

– ٣١٩ فليمون والملهاة الجديدة .

– ٣١٨ أرسطوفانس فيلسوف تارنتم وفنانها الموسيقى .

٣١٧ – ٣٠٧ دمتريوس الفاليرومى يتولى السلطة فى أثينة .

– ٣١٦ كسندر ملك مقدونية .

٣١٥ – ٣٠١ أنتجونس الأول سيكلپس ملك مقدونية .

– ٣١٤ أنتجونس الأول يعلن حرية بلاد اليونان ؛ قدوم زينون إلى أثينة .

٣١٤ – ٢٧٠ پوليما رئيس المجمع العلمى .

٣١٢ – ١٩٨ بلاد اليونان تخضع البطالمة .

٣١٢ – ٢٨٠ سلوقس الأول (نكاتور) يؤسس الإمبراطورية السلوقية .

– ٣١١ هملكار يغزو صقلية .

– ٣١٠ أجثكل طاغية سرقوسة يغزو إفريقية .

– ٣٠٧ قانون مناهضة الفلاسفة .

٣٠٧ – ٢٨٧ دمتريوس پليورستيز ملك مقدونية .

– ٣٠٦ أبيقور يفتتح مدرسته فى أثينة .

٣٠٦ – ٣٠٢ الحرب بين كسندر ودمتريوس پليورستيز للسيادة على بلاد اليونان .

– ٣٠٥ تميوس التورومنيومى المؤرخ .

– ٣٠١ زينون يفتتح مدرسته فى استوى ، وسلوقس الأول يؤسس أنطاكية ؛ لسماخوس يهزم أنتجونس الأول عند إبسوس .

– ٣٠٠ إقليدس الإسكندرى الرياضى ؛ أوثيميروس صاحب المذهب العقلى .

٢٩٥ – ٢٧٢ پيرس ملك الملوسيين .

ق . م .

— ٢٩٠ مدرسة التحت الروديسية .

٢٨٨ — ٢٧٠ استراتون رئيس اللوقيون .

٢٨٥ — ٢٤٦ بطليموس الثانى (فلادلفس) ؛ متحف الإسكندرية ومكتبتها .

— ٢٨٥ زنودوتس مدير المكتبة ؛ هروفيلوس الخلقدونى عالم التشريح .

٢٨٣ — ٢٣٩ أنتجونس الثانى (جناتاس) ملك مقدونية .

— ٢٨٠ أرسطوخوس الساموسى الفلكى ؛ قيام حلف الآخيين ؛ پيرس يساعد تارنتم على رومة .

٢٨٠ — ٢٦٢ أنطيوخوس الأول (سوتر) السلوقى الإمبراطور .

٢٨٠ — ٢٧٩ الغاليون يغزون مقدونية وبلاد اليونان .

— ٢٧٩ پيرس يغزو صقلية .

— ٢٧٨ تمثال رودس الضخم .

— ٢٧٧ الغاليون يغزون آسية الصغرى .

— ٢٧٥ أراطوس الصولى الشاعر .

— ٢٧١ ثيمن الفيلوسى الهجاء .

— ٢٧٠ كلخوس الإسكندرى وثاوقريطوس الكوسى الشاعران ؛ بروسس البابلى المؤرخ .

٣٧٠ — ٢٦٩ أقراطيس الأثينى رئيس المجمع العلمى .

٢٧٩ — ٢١٦ ميزون الثانى طاغية سرقوسة .

٢٦٩ — ٢٤١ أرسسلوس رئيس المجمع العلمى الأوسط .

٢٦٦ — ٢٦١ الحرب الكرمنيدية .

— ٢٦١ أنتجونس الثانى يستولى على أثينة .

٢٦١ — ٢٤٧ أنتيوخوس الثانى (ثيوس) الإمبراطور السلوقى .

٢٦١ — ٢٣٢ أفلاڤيتوس رئيس الاستوى .

— ٢٦٠ هرداس الكوسى الشاعر .

— ٢٥٨ إراسسطراطوس الكيوسى العالم فى وظائف الأعضاء .

٢٥٧ — ١٨٠ أرسطوفان البيزنطى العالم اللغوى .

— ٢٥١ أراطوس السكيونى يحرر مدينته .

— ٢٥٠ أرساسيس يؤسس مملكة پارثيا ؛ اللاؤكون ؛ مانيثون المؤرخ المصرى ليكفرون الخلقيسى الشاعر .

— ٢٤٧ أركيدين السراقوسى العالم الطبيعى .

٢٤٧ — ٢٠٦ سلوقس الثانى (كلنيكوس) .

٢٤٦ — ٢٢١ بطليموس الثانى (إرجنيس الأول) .

ق . م .

– ٢٤٣ أراطوس يقود الحلف الآخى ضد مقدونية .

– ٢٤٢ أجيس الرابع يحاول الإصلاح فى اسپارطة .

– ٢٤٠ أپلونيوس الرودسى الشاعر .

٢٣٩ – ٢٢٩ دمتريوس الثانى ملك مقدونية .

٢٣٥ – ١٩٧ أتلّس الأول يؤسس مملكة برجموم .

٢٣٥ – ١٩٥ أرتسثنيز مدير مكتبة الإسكندرية .

٢٣٢ – ٢٠٧ أقريسيپوس رئيس الاستوى .

– ٢٢٩ أراطوس يحرر أثينة .

٢٢٩ – ٢٢١ أنتجونس الثالث (دوسون) ملك مقدونية .

٢٢٦ – ٢٢٤ إصلاحات كليومينيس فى اسپارطة .

٢٢٦ – ٢٢٣ سلوقس الثالث (سوتر) .

٢٢٥ الزلزال يدمر رودس .

٢٢٣ – ١٨٧ أنتيوخوس الثالث (العظيم) الإمبراطور السلوقى .

– ٢٢١ أنتجونس الثالث يهزم كليومنيز الثالث عند سلاسيا .

٢٢١ – ١٧٩ فليپ الخامس ملك مقدونية .

٢٢١ – ٢٠٣ بطلميوس الرابع (فيلوپاتر) .

٢٢٠ أپلونيوس البرجائى العالم الرياضى .

– ٢١٧ بطليموس الرابع يهزم أنتيوخوس الثالث عند رافيا .

٢١٥ تحالف فليپ الخامس وهنيبال .

٢١٤ – ٢٠٥ الحرب المقدونية الأولى ضد رومة .

– ٢١٢ مارسلوس يستولى على سرقوسة ، موت أركسميديز .

– ٢١٠ صقلية تصبح ولاية رومانية .

٢٠٨ زينون الطرسوسى الفيلسوف .

٢٠٧ ثورة نابيس فى اسپارطة .

٢٠٥ مصر حماية رومانية .

٢٠٣ – ١٨١ بطليموس الخامس (ابفانيز) .

٢٠٠ – ١٩٧ الحرب المقدونية الثانية .

– ٢٠٠ ديجين السلوقى الفيلسوف .

١٩٧ معركة سينوسفلى .

١٩٧ – ١٦٠ مجد برجموم تحت حكم يومنيز الثانى

– ١٩٦ فلامنيوس يعلن حرية بلاد اليونان ؛ إنشاء مكتبة برجم .

١٩٠ – ٨٠ أرسطوفان البيزنطى أمين مكتبة الإسكندرية .

ق . م .

— ١٩٠ العجل الفرنيزى .

— ١٨٩ الرومان يهزمون أنتيوخوس الثالث عند مجنيزيا .

— ١٨٨ فليبومين يلغى دستور ليقورغ فى اسپارطه .

١٨٧ — ١٧٥ سلوقس الرابع (فلوپاتر) .

١٨١ — ١٤٥ بطليموس السادس (فلوميتور) .

— ١٨٠ المذبح العظيم فى پرجوم . أرسطارخوس السمثراسى أمين مكتبة الإسكندرية

١٧٩ — ١٦٨ پرسيوس ملك مقدونية .

١٧٥ — ١٦٣ أنتيوخوس الرابع (إپفانيز) الإمبراطور السلوق .

١٧٥ — ١٣٨ مثرداتس الأول ملك پارثيا . .

— ١٧٤ أنتيوخوس الرابع يعيد بناء أولمپيوم .

— ١٧٣ قرنيادس رئيس الأكاديمية الجديدة .

١٧١ — ١٦٨ الحرب المقدونية الثالثة .

— ١٦٨ إيمليوس پولوس يهزم پرسيوس عند پدنا . أنتيوخوس الرابع ينهب هيكل أورشليم .

— ١٦٧ إخراج الآخيين ومنهم پوليبيوس المؤرخ .

— ١٦٦ نهضة المكابيين الأولى ؛ سفر دانيال .

— ١٦٥ چوداس مكابى يعيد الصلوات فى المعبد .

١٦٣ — ١٦٢ أنتيوخوس الخامس (پوپاتر) الإمبراطور السلوق .

١٦٢ — ١٥٠ دمتريوس الأول (سوتر) الإمبراطور السلوق .

— ١٦١ چوداس مكابى يعقد معاهدة مع رومة .

— ١٦٠ هزيمة چوداس مكابى وموته .

١٦٠ — ١٣٩ أتلس الثانى ملك برجوم :

— ١٥٧ بلاد اليهود تصبح دولة مستقلة يحكمها رجال الدين .

— ١٥٥ كرنيديز فى رومة .

١٥٠ — ١٤٥ الكسندر بالاس الإمبراطور السلوق .

— ١٥٠ هپاركوس النيقيائى وسلوقس السلوق الفلكيان ؛ مسخوس الأزميرى الشاعر .

— ١٤٦ ميوس ينهب كورنثة ؛ بلاد اليونان ومقدونيـة تصبحان ولاية تابعة لرومة .

الباب الثالث والعشرون

بلاد اليونان ومقدونية

الفصل الأول

تنازع السلطان

يقسم المؤرخون الماضى أحقابا ، وسنين ، وحوادث ، كما يقسم الفكر العالم جماعات ، وأفراداً أو أشياء ؛ ولكن التاريخ لا يعرف ، كما لا تعرف الطبيعة ، إلا الاستمرار والتغير — والتاريخ لا يقفز قفزات historia non facit. لهذا لم تشعر بلاد اليونان الهلنستية بأن موت الأسكندر كان نهاية عصر من العصور ؛ بل نظرت إلى الإسكندر نفسه على أنه بداية العصور « الحديثة » ، وعلى أنه رمز الشباب القوى لا على أنه عامل من عوامل الاضمحلال والفناء ؛ وكان هذا العالم موقنا بأنه قد بدأ الآن أعظم مراحل النضوج ، وأن زعماءه لم يكونوا يقلون عظمة وفخامة عن الزعماء فى أى عصر من العصور الماضية ماعدا الملك الشاب نفسه ، فهو دون غيره نسيج وحده[1]. ولقد كان هذا العالم على حق من نواح كثيرة . ذلك أن الحضارة اليونانية لم تمت بموت الحرية اليونانية ، بل إنها على العكس من ذلك قد افتتحت لنفسها أقطاراً جديدة ، وانتشرت فى ثلاث جهات بعد أن حطم تكوين الإمبراطوريات الواسعة ما كان يعترض سبل الاتصال والاستعمار والتجارة من حواجز سياسية . وكان اليونان لا يزالون شعبا مغامرا يقظاً . فهاجروا بمئات الآلاف إلى آسية ، ومصر ، وإيبروس ، ومقدونية ، وبذلك لم تزدهر أيونيا مرة أخرى وحسب ، بل إن الدم الهلينى

واللغة اليونانية والثقافة اليونانية قد شقت طريقها إلى داخل آسية الصغرى ، وفينيقية وفلسطين ؛ واخترقت سوريا ، وبابل ؛ وتخطت نهرى الفرات ودجلة ، بل وصلت إلى بكتريا والهند نفسهما . ولم تكن الروح اليونانية فى فى وقت من الأوقات أشد مما كانت فى ذلك الوقت حماسة وشجاعة ؛ ولم تحرز الآداب والفنون اليونانية نصراً مؤزراً أوسع من النصر الذى أحرزته فى تلك الأيام .

ولعل هذا هو السبب الذى جعل المؤرخين يختتمون تاريخ بلاد اليونان بالإسكندر ؛ ذلك أن العالم اليونانى بعد موته قد بلغ من الاتساع والتعقد حداً لايستطيع الإنسان معه أن ينظر إليه على أنه وحدة ، أو يقص تاريخه قصة متصلة . ذلك أنه لم تقم فيه ثلاث دول ملكية كبرى فحسب — مقدونية ، وسلوقية ومصر — ؛ بل نشأ فيـــه أيضاً مائة من دول المدن اليونانية تتمتع بدرجات مختلفة من الاستقلال ؛ وقامت أحلاف واتحادات متشابكة ؛ وأنشئت دول نصف يونانية فى أبيروس ، وبلاد اليهود ، وبرجموم ، وبيزنطية ، وبيثينيا ، وكبدوكيا ، وغلاشيا ، وبكتريا . وقامت فى الغرب إيطاليا وصقلية اليونانيتان تتنازعهما قرطاجة العجوز وروما الفتية . وكانت دولة الإسكندر المزعزعة القواعد لاتربطها إلا روابط ضعيفة من اللغة وسبل الاتصال ، والعادات والدين ، لا تقوى معها على البقاء طويلا . يضاف إلى هذا أنه لم يترك وراءه رجلا قويا واحدا بل ترك رجالا كثيرين ، لم يكن منهم من يقنع بأقل من السيادة التامة . وغفلت الدولة الجديدة لسعتها واختلاف أصقاعها عن فكرة الدمقراطية ، فقد كان الاستقلال ، كما يفهمه اليونان ، يفترض وجود دولة مدينة يستطيع مواطنوها أن يجتمعوا فى أوقات معينة فى مكان واحد . يضاف إلى هذا أن فلاسفة أثينة الدمقراطية قد عابوا على هذه الدمقراطية نفسها أنها مستقر الجهالة والتحاسد والفوضى . وكان خلفاء الإسكندر جماعة من الزعماء المقدونيين تعودوا من زمن بعيد أن يقيموا حكمهم بالسيف ؛ ولم يكن للدمقراطية نصيب من تفكيرهم إلا فى أوقات متفرقة

يستشيرون فيها أعوانهم . وبعد عدة مناوشات حربية صغيرة تخلصوا فيها من صغار منازعيهم ، قسموا الدولة خمسة أقسام (٣٢١) ، فاختص أنتيباتر بمقدونية وبلاد اليونان ؛ وليسماخوس بتراقية ، وأنتجونس بآسية الصغرى ، وسلوقس ببابل ، وبطليموس بمصر . ولم يروا ضرورة لدعوة مجمع عام من الدول اليونانية يؤيد هذا التقسيم . وظلت الملكية من تلك الساعة إلى قيام الثورة الفرنسية — إذا استثنينا فترات متقطعة فى تاريخ بلاد اليونان نفسها وتاريخ جمهورية رومة الأرستقراطية — هى المسيطرة على أوربا بأكملها .

إن المبدأ الأساسى الذى تقوم عليه الدمقراطية هو الحرية التى تدعو إلى الفوضى ، كما أن المبدأ الأساسى فى الملكية هو السلطان الذى يدعو إلى الاستبداد والثورة والحرب . ولقد كانت الحروب الخارجية والأهلية من عهد فليب إلى عهد برسيوس ، ومن قيرونية إلى بدنا (٣٣٨ — ١٦٨) تكملها الحروب الخارجية والداخلية فى الممالك لأن منافع الحكم تغوى مائة من القواد على أن يتنازعوا العروش . ولم يكن العنف أقل انتشاراً فى بلاد اليونان الهلنستية منه فى رومة فى عهد النهضة . كذلك لم يكن زعماء العصابات الذين يستأجرون بالمال لتأييد هذا الفريق أو ذاك أقل عدداً أو أقل شهرة فى الأولى منهم فى الثانية . ولما مات أنتيباتر ثارت أثينة مرة أخرى ، وقتلت فوشيون الشيخ الطاعن فى السن بعد أن حكمها باسم أنتيباتر حكماً كان أعدل ما يستطيع أن يهبها من أحكام ، وأعاد كسندر بن أنتيباتر المدينة إلى نحكم مقدونية (٣١٨) ، ووسع حق الانتخاب حتى شمل من كان يملك ألف درخمة ، وأناب عنه فى الحكم ديمتريوس الفلروى Demetrius of Phalerum الفيلسوف ، والعالم ، والفنان الهاوى الذى نعمت المدينة فى عهده بعشر سنين من الرخاء والسلام ، وفى هذه الأثناء كان أنتيجونس الأول « الجبار الأعور » يحلم بضم دولة الإسكندر كلها تحت عينه الواحدة ؛ ولكن حلفا من أقسام هذه الدولة هزمه عند إپسوس (٣٠١) ، وانتزع منه سلوكس آسية الصغرى ، وحرر

ابنه دمتريوس بوليكريتيز (« آخذ المدن ») بلاد اليونان من نير مقدونية ، واستمتعت أثينة تحت حكمه باثنى عشر عاما أخرى من الحكم الدمقراطى ؛ وأقام فى البرثنون ضيفا على المدينة ، وجاء بالسرارى ليعشن معه فيه[٢] ، ودفع بعض الشبان المستيئسين إلى أعمال العنف بمغامراته النسائية[*] ، وانتصر فى معركة بحرية انتصارا باهراً على بطليموس الأول قرب قبرص (٣٠٨) ، وحاصر رودس ستة أعوام استخدم فيها آلات جديدة من آلات الحصار ، ولكنه ارتد عنها خائبا . وجعل نفسه ملكا على مقدونية (٢٩٤) ، وقضى على حرية أثينة بحامية وضعها فيها ، وتورط فى حرب بعد حرب ، حتى هزمه سلوكس وقبض عليه ؛ ومات من كثرة الشراب .

وبعد أربع سنين من ذلك الوقت (٢٧٩) ، انتهزت جموع من الكلت أو « الغالبين » بزعامة برنوس Brennus فرصة ما حدث من الاضطراب بسبب النزاع القائم على السلطة فى شرق البحر الأبيض المتوسط[**] ، فانقضت على بلاد اليونان مخترقة تراقيه ومقدونية . ويقول بوسنياس إن برنوس « أشار إلى ضعف بلاد اليونان ، وإلى ما فى مدنها من ثروة طائلة ، وما فى هياكلها من نذور ضخمة ، وإلى ما فى البلاد من مقادير هائلة من الفضة والذهب[٤] » . وشبت فى نفس هذا الوقت نار الثورة فى مقدونية بزعامة أبلودوروس Apollodorus ؛ وانضم قسم من الجيش إلى الثوار ، وأيدوا الفقراء الجياع فى ثأرهم الدورى المتكرر من الأغنياء وانتهاب ثروتهم . وما من شك فى أن الغاليين قد وجدوا لهم بإرشاد أحد اليونان طريقاً سريا حول ترموبيلى ، فعاثوا فى الأرض فسادا ، يقتلون وينهبون بلا حرج ولا تمييز ، ثم تقدموا بجموعهم نحو هيكل دلفى

(*) وبحث دمتريوس عن دمكليز Damocles فى كل مكان ، ولما أوشك أن يقبض عليه قتل نفسه بأن قفز فى قدر بها ماء يغلى[٣] . وليس لنا أن نحكم على الأثينيين حكما خاطئاً مستندين إلى هذا المثل الفذ من أمثلة الفضيلة .

(**) وهو غير برنوس الذى غزا إيطاليا فى عام ٣٩٠ ق . م .

الغنى . فلما صدتهم عنه قوة يونانية وعاصفة هوجاء أرسلها أپلو كما يعتقد اليونان للدفاع عن مزاره ، تقهقر برتوس وقتل نفسه فرارا من العار . وعبرت فلول الغاليين الذين نجوا من القتل إلى آسية الصغرى ، ويقول فيهم پوسنياس إنهم « ذبحوا جميع الذكور ، والعجائز ، كما ذبحوا الأطفال على صدور أمهاتهم ؛ وشربوا دماءهم وأكلوا لحوم السمان منهم ، فلما رأت ذلك النساء الشريفات والعذارى المخدرات انتحرن فرارا من العار . . . وتعرض من بقين على قيد الحياة لأصناف من الامتهان لا حصر لها . . . فمنهن من ألقين بأنفسهن على شفار سيوف الغاليين ، يطلبن لأنفسهن الموت ، ومنهن من قضين نحبهن من الجوع وعدم النوم ، وكان هؤلاء البرابرة الغلاظ الأكباد يغتصبونهن واحدة فى إثر واحدة ويشبعون فيهن شهواتهم سواء كن أحياء أو أمواتاً(*)(٥) .

وبعد أن عاث الغزاة فسادا فى البلاد أعواما طوالا ، أقنعهم يونانيو آسية بما نفحوهم من المال بأن ينسحبوا إلى شمالى فريجيا (وعرفت مستعمراتهم فيها باسم غالاشيا) ، وإلى تراقية وبلاد البلقان . وظل الغاليون جيلين كاملين يرهبون سلوقس الأول والمدن اليونانية القائمة على سواحل آسية وشواطئ البحر الأسود . وكانت بزنطية وحدها تؤدى لهم جزية سنوية تقدر بمايوازى ٢٤٠,٠٠ ريال أمريكى(**)(٦) . وكما أن أباطرة رومة وقوادها قد شغلوا فى القرن الثالث بعد الميلاد بصد غارات البرابرة على الدولة الرومانية ، كذلك

(*) ليس لدينا رواية من الغاليين أنفسهم عن هذه الحوادث ، كما أننا ليس لدينا أية رواية من « البرابرة » عن غزو اليونان لآسية ، أو إيطاليا ، أو صقلية .

(**) سنقدر الوزنة فى الصفحات التالية من هـذا الكتاب بما يعادل ٣٠٠٠ ريال أمريكى على أساس قيمة الريال فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٩ ، وذلك لكى ندخل فى حسابنا ما حدث فى العصر الهلنستى من ارتفاع فى الأسعار .

سخر ملوك برجموم ، وسلوقيا ، ومقدونية ، هم وقوادها مواردهم وقواهم فى القرن الثالث قبل الميلاد لصد موجات الكلت الغزاة المتكررة عن البلاد اليونانية . ذلك أن الحضارة القديمة كانت طوال تاريخها تعيش على شاطىء بحر من الهمجية طالما هددها بإغراقها واجتياحها ؛ وقد استطاعت بسالة المواطنين أن تصد أمواج هذا البحر الطامى فى يوم من الأيام بعد أن أعدت لهذا الغرض إعداداً دائماً طويل الأمد ؛ ولكن البسالة كانت تحتضر فى بلاد اليونان فى وقت أن كان الدهر يضفى عليها صبغتها القديمة ويخلع عليها اسمها اللذين عرفت بهما فى مستقبل أيامها .

وطرد أنتجونس الثانى ابن دمتريوس بوليكراتيس والمعروف باسم « جوناتاس » لأسباب لانعرفها الآن ، طرد الغالبين من مقدونية ، وقلم أظفار فتنة أبلودورس ، وحكم مقدونية حكما حازما معتدلا دام ثمانية وثلاثين عاماً (٢٧٧ — ٢٣٩) . وكان سمحا جواداً يناصر الآداب والعلوم والفلسفة ، واستدعى شعراء مثل أراطوس السليانى إلى بلاطه ، ووثق مع زينون الرواقى الصداقة التى دامت طوال حياته ، وكان أول تلك السلسلة غير المتصلة الحلقات من الفلاسفة الملوك التى انتهت بماركس أورليوس . ومع هذا فى أثناء حكمه بذلت أثينة آخر جهودها لاستعادة حريتها . ذلك أن الحزب الوطنى الأثينى الذى كان يتزعمه فى ذلك الوقت أقرمنيدس Chremonides أحد تلاميذ زينون الشبان استولى على أزمة الحكم فى عام ٢٦٧ . واستطاع بمعونة مصر أن يطرد الجنود المقدونيين من المدينة ، ويعلن استقلال أثينة وحريتها . وجاءه أنتجونس على مهل ، واسترد المدينة (٢٦٢) ، ولكنه عامله معاملة من يحترم الفلسفة والشيخوخة ؛ فوضع حاميات فى پيرية وسلاميس وعند سنيوم ، وحذر أثينة من الاشتراك فى أحلاف والاشتباك فى حروب ، وفيما عدا هذا ترك للمدينة حريتها كاملة .

وكانت المدن اليونانية الأخرى وقتئذ تحل بأساليب اخرى مشكلة التوفيق بين الحرية والنظام ، فشرعت إيتوليا الصغيرة حوالى عام ٢٧٩ ، وكان يسكنها

(شكل ٤٥) رأس هرمس من صنع پركستليز (متحف أولمپيا)

(شكل ٤٦) دوريفوروس من صنع پولكليتس كما أعاده أپلونيوس (متحف نابل)

كما يسكن مقدونية أقوام جبليون نصف همج لم يخضعوا فى حياتهم لغريب ، شرعت هذه المدينة الصغيرة تنظم مدن اليونان الشمالية — وخاصة مدن الحلف الدلفى الاثنى عشرى — وتضمها فى الحلف الإيتولى ؛ وضم الحلف الآخى المؤلف من مدائن پترى Patrae ، وديمى Dyme ، وپلينى ، إلى عضويته حوالى ذلك الوقت كثيراً من مدن البلوپونيز . وظلت الهيئات البلدية التى يتألف منها كلا الحلفين تشرف على جميع فروع الحكومة المحلية ، ولكنها أسلمت قواها المسلحة وعلاقاتها الخارجية إلى مجلس الاتحاد وإلى استراتيجوس ينتخبه من يستطيع من المواطنين أن يحضر الجلسات السنوية التى تعقدها الجمعية فى إجيوم من أعمال آخية أو فى ثرموس من أعمال إيتوليا . وكانت مهمة كل حلف أن يحافظ على السلم ، ويوحد المقاييس والموازين والسكة فى الأصقاع التى يشملها . وتلك خطوة فى سبيل التعاون تجعل القرن الثالث أرقى من عصر پركليز من بعض الوجوه .

وحول أراتوس السكيونى عصبة الدول السكيونية إلى قوة من الطراز الأول . واستطاع هذا الكورنثكليز الجديد وهو فى سن العشرين أن يحرر سكيون من طاغيتها بأن باغته بالهجوم ليلا هو وحفنة من الرجال ، واستطاع بفصاحته وبراعته فى المفاوضات أن يقنع جميع مدن البلوپونيز ماعدا اسبارطة وإليس بأن تنضم إلى العصبة التى ظلت تنتخبه رئيساً لها مدى عشر سنين (٢٤٥ . . ٢٣٥) . ودخل مدينة كورنثة سرا ومعه بضع مئات من رجاله وتسلق قمة أكروكورنثس المنيعة ، وبدد شمل الجيوش المقدونية ، وأعاد إلى المدينة حريتها . ثم انتقل إلى ثغر پيرية ورشا الحامية المقدونية المقيمة بها بالمال فاستسلمت له وأعلن تحرير أثينة ، وظلت تلك المدينة من ذلك الوقت إلى الفتح الرومانى تستمتع باستقلال فذ فى نوعه — فقد كانت لا حول لها ولا طول

من الناحية العسكرية ولكن الدول الهلنستية تركتها وشأنها لم تمسها بسوء لأن جامعاتها العلمية جعلتها العاصمة الذهنية للعالم اليونانى . ووجهت أثينة عنايتها للفلسفة ، واختفت من ذلك الحين من التاريخ السياسى .

وكانت عصبتا الدول اليونانية وقتئذ فى عنفوان قوتهما ، ثم أخذتا تضعفان نفسهما بمحاربة كل منهما للأخرى فى الخارج ، وبحروب الطبقات فى الداخل . ففى عام ٢٢٠ اشتبكت العصبة الإيتولية ومعها اسپارطة وإليس فى الحرب « الاجتماعية » العوان ضد العصبة الآخية ومقدونية . وكان أراطوس المدافع عن الحرية يدافع أيضاً عن حق الملكية ؛ ولذلك كانت العصبة تؤيد حزب الملاك فى كافة المدن . وشكا فقراء المواطنين من أنهم لا يستطيعون حضور الجمعيات النائية لعصبة الدول وأنهم كانوا فى واقع الأمر محرومين من الحقوق السياسية ؛ وكانوا يرتابون فى فائدة حرية لا معنى لها إلا أن تتيح الفرصة كاملة للأقوياء والمهرة دون غيرهم لكى يستغلوا الضعفاء والسذج ؛ فأخذوا يؤيدون تأييداً متزايداً المهرجين من زعماء الشعب الذين كانوا ينادون بإعادة توزيع الأراضى الزراعية ؛ وشرع الفقراء يفضلون حكم المقدونيين على حكومتهم الوطنية كما كان يفعل الأغنياء قبل مائة عام من ذلك الوقت .

بيد أن الذى قضى على مقدونية آخر الأمر هو أمانة أنتيجونس الثالث . وذلك أنه كان قد استولى على زمام السلطة بوصفه وصياً على فليپ ابن زوجته ، ووعد بأن يتخلى على الملك حين يبلغ فليپ سن الرشد . وأطلق عليه الساخرون فى ذلك الوقت اسم « الدوسون Doson أى الواعد » ، لأنهم على مايبدو كانوا موقنين بأنه لن يوفى بوعده . ولكنه أنجز هذا الوعد فعلا ، وبدأ فليپ الخامس فى عام ٢٢١ ، وهو فى السابعة عشرة من عمره ، حكما طويلا مليئاً بالدسائس والحروب . وكان فليپ شجاعا قديراً ، ولكنه كان مخاتلا ميت الضمير ، لم

يتورع عن أن يغرر بزوجة ابن أراطوس ، ويسم أراطوس نفسه ، ويقتل ابنه هو لأنه ظنـــه يأتمر به ، وأقام ولائم من الخمر المسموم للذين وقفوا فى وجه خططه(٧) . وقد وسع رقعة مقدونية وزاد ثروتها ، وتركها وهى أكثر سكانا وأعظم رخاء مما كانت عليه منذ مائة وخمسين عاماً . ولكنه فى عام ٢١٥ أوجس خيفة من قوة رومة النامية ، فارتكب الغلطة التاريخية الموبقة بأن تحالف مع هنيبال وقرطاجة ، فما كان من رومة إلا أن أعلنت الحرب على مقدونية بعد عام واحد من ذلك الوقت وبدأت تستولى على بلاد اليونان .

الفصل الثانى

الكفاح من أجل المال

ويقول أثنيوس ، وهو ثرثار خليق بأن يعتمد عليه بالقدر الذى يصح أن يعتمد به على أمثاله الثرثارين ، إن دمتريوس الفالرومى أحصى سكان أثينة حوالى عام ٣١٠ ق . م فوجد فيها ٢١,٠٠٠ من المواطنين ، و١٠,٠٠٠ من الغرباء المستوطنين ، و٤٠٠,٠٠٠ من الأرقاء[٨] : فأما العدد الأخير فلا يمكن تصديقه ، ولكنا لانعرف شيئاً ينقضه ، وأكبر الظن أن عدد الأرقاء الذين كانوا يعملون فى المزارع قد ازداد لأن الضياع كانت آخذة فى الاتساع ، ولأن استغلالها بجهود العبيد تحت إشراف العبيد الذين يعملون فى خدمة المالك البعيد عنها ، كان آخذاً فى الازدياد[٩] . وبفضل هذا النظام انتشر نظام الزراعة الذى يعتمد على العلم أكثر من ذى قبل ؛ ودليلنا على ذلك أن فاروVarro كان يعرف أسماء خمسين كتاباً فى فن الزراعة . ولكن عوامل التعرية وتقطيع الغابات أدت إلى اكتساح التربة فى مساحات واسعة من الأرض الخصبة . وحتى فى القرن الرابع ذكر أفلاطون أن الأمطار وفيضانات الأنهار قد جرفت على مر الزمن كثيراً من تربة أتكا الخصبة ؛ ويشبه ما بقى من التلال بالهيكل العظمى الذى انتزع منه اللحم[١٠] . وما وافى القرن الثالث حتى كانت مساحات واسعة فى أتكا قد تعرت من تربتها الخصبة إلى درجة اضطرت أصحاب كثير من الضياع القديمة إلى هجرها ، وأخذت غابات بلاد اليونان تختفى شيئاً فشيئاً ، حتى اضطر الأهلون إلى استيراد الخشب كما اضطروا إلى استيراد الطعام من خارج البلاد[١١] . كذلك أجدبت مناجم لورويوم ، وكادت هى الأخرى أن تهجر ، وكان

استيراد الفضة من أسپانيا أرخص من استخراجها من مناجم البلاد ، وأضحت مناجم الذهب فى تراقية تغنى خزائن مقدونية وتجمل عمائها بعد أن كانت تصب ثروتها فى أثينة .

وبينما كانت موارد الرجولة والمواطنية المستقلة ينضب معينها فى القرى ، كانت الصناعة وحرب الطبقات تفعلان فعلهما فى المدن ، فكانت المصانع الصغيرة فى أثينة وفى جميع المدائن الكبرى فى العالم الهلنستى يتزايد عددها وعدد العبيد الذين يعملون فيها ؛ وكان تجار الرقيق يصحبون الجيوش ، ويبتاعون من لايفتدون من الأسرى ، ويبيعونهم بسعر ثلاث مينات أوأربع (مائة وخمسين ريالا أو مائتى ريال) فى أسواق الرقيق الكبرى فى ديلوس ورودس . وكان عدد من الناس يشعرون بما فى هذا النظام القديم ، نظام الاسترقاق ، من مجافاة للمبادئ الإنسانية ؛ وكان من ثمار الفلسفة أن سرت فى قلوب الناس عاطفة إنسانية نبيلة ؛ يضاف إلى هذا أن الروح العالمية التى سادت ذلك العصر لم تكن تميز بين الأجناس البشرية ، وأن العمال المأجورين الذين يخرجون من الأعمال حين لاتأتى بأرباح ليعيشوا من معونة الدولة ، كانوا فى كثير من الظروف أقل كلفة من العبيد الذين لابد من إطعامهم على الدوام[١٢]. وكان من أثر هذه العوامل كلها أن أخذ عدد العبيد المحررين يزداد فى ذلك الوقت زيادة ملحوظة .

وكسدت التجارة فى المدن القديمة ولكنها راجت فى المدن الحديثة ، فازدهرت الثغور اليونانية فى آسية ومصر على حساب ثغر پيرية ، وحتى فى أرض اليونان القارية كانت خلقيس وكورنثة هما اللتين استفادتا من تيار التجارة الهلنستية الزاخر ؛ فقد كان التجار لاينقطعون عن التردد غادين رائحين على هذين البلدين ذوى المركز الهام والاستعداد التجارى العظيم ، كما لم يكونوا ينقطعون عن التردد على أنطاكية ، وسلوقيا ، ورودس ، والإسكندرية ، وسرقوسة ؛ وكانوا ينشرون مع تجارتهم نزعتهم العالمية والمتشككة . وتضاعف عدد رجال المصارف ، ولم يكونوا يقرضون المال

للتجار والملاك فحسب ، بل كانوا يقرضونه أيضاً للمدن والحكومات[١٣] ؛ وكان لبعض المدن مثل ديلوس وبيزنطية مصارف عامة أو وطنية تودع فيها الحكومات أموالها ويديرها موظفون معينون من قبل الدولة[١٤] . وفى عام ٣٢٤ أنشأ أنتمنيس الرودسى أول نظام معروف للتأمين ، وذلك بأن ضمن للملاك نظير ثمانية فى المائة من إيرادهم ما عسى أن يصيبهم من الخسارة إذا فر منهم عبيدهم[١٥] . وكانت نتيجة انطلاق الأموال المكدسة فى خزائن بلاد الفرس ، وسرعة تداول رؤوس الأموال ، أن نقص سعر الفائدة إلى عشرة فى المائة فى القرن الثالث ، وإلى سبعة فى المائة فى القرن الثانى . كذلك انتشرت المضاربات انتشاراً كبيراً ، ولكنها كانت على غير نظام ؛ فمن المضاربين من كانوا يعملون لرفع الأسعار بتحديد الإنتاج ؛ وقد وجد فى البلاد من كانوا يدعون إلى تحديد مقدار الحاصلات الزراعية لكى يحتفظ الزراع بقدرتهم على الشراء[١٦] . وكانت أثمان السلع مرتفعة فى العادة لأن الإسكندر هو الآخر قد صب فى أيدى الناس الأموال المكدسة فى خزائن الملوك الأكمينيين ؛ لكن هذا السبب عينه كان من الأسباب التى يسرت سبل التجارة ، ونشطت الإنتاج فعادت الأثمان إلى مستواها العادى . وازدادت ثروة الأغنياء إلى حد لم يعرف له مثيل فى تاريخ اليونان ، فاستحالت البيوت قصوراً ، وأضحت الرياش والعربات أفخم من ذى قبل ، وكثر العبيد ، وصارت وجبات الطعام قصفا ولهوا خليعاً ، وأضحت النساء معارض لثراء أزواجهن[١٧] .

ولم تستطع الأجور لانخفاضها مجاراة أثمان السلع الآخذة فى الارتفاع . فإذا انخفضت هذه الأسعار انخفضت معها الأجور على الفور ؛ ولم تكن تكفى إلا لإطعام شخص بمفرده ، وكانت سبباً فى انتشار العزوبة والمسكنة ، وإقفار البلاد من أهلها ؛ وأخذ الفرق بين أجر العمل الحر ونفقات الرقيق ينقص — تدريجا . ولم يكن العمل ميسراً للعمال على الدوام ، وترك آلاف من الرجال مواطنهم فى المدن اليونانية التى فى أرض القارة ليعملوا جنودا

مرتزقين فى خارج البلاد ، أوليخفوا فقرهم فى عزلتهم الريفية(١٨) . وأعانت حكومة أثينة المعدمين من أهلها بهبات من الحبوب ، وأخذ الأغنياء يسلونهم بما يقدمون لهم من التذاكر التى تبيح لهم حضور الحفلات والألعاب . فقد كانوا يقترون فى الأجور ، ولكنهم كانوا أسخياء فى الصدقات ؛ وكثيراً ماكانوا يقرضون المال لمدنهم من غير فائدة ، أو ينقذونها من الإفلاس بالهبات الضخمة ، أو ينشئون المبانى العامة على نفقتهم الخاصة ، أو يهبون المال للهياكل والجامعات ، أو يجودون بالكثير منها لإقامة التماثيل ، أو لإجازة الشعراء الذين يذيعون فى الناس ملاحمهم أو يشيدون بعطاياهم . ونظم الفقراء أنفسهم فى اتحادات ليتبادلوا المعونة فيما بينهم ، ولكنهم كانوا أضعف من أن يحدوا من سلطان الأغنياء أومهارتهم ؛ ومن جمود الفلاحين واستعداد الحكومات والأحلاف المتنافسة لتبادل المعونة المسلحة للقضاء على الثورات(١٩). وقد أدت حرية الكفايات غير المتكافئة فى جمع الثروة أو الهلاك جوعا إلى ما أدت إليه من قبل فى أيام صولون ، ألا وهو تركز الثروة فى أيدى عدد قليل جداً من الأفراد . وكان الفقراء سريعى الاستجابة إلى الدعايات الاشتراكية ، فأخذ ممثلوهم يطالبون بإلغاء الديون ، وإعادة توزيع الأراضى الزراعية على الأهلين ، ومصادرة الثروات الكبرى ؛ وكان أكثرهم جرأة يطالبون من حين إلى حين بتحرير العبيد(٢٠) .

وكان ضعف العقيدة الدينية سبباً فى نشأة الدعوة إلى إقامة مدائن فاضلة خيالية تعوض على الناس هذا الضعف : فوصف زينون الرواقى فى جمهوريته التى نشرها عام ٣٠٠ ق . م على ما يظن نظاما شيوعيا مثاليا ؛ وألم يمبولوس أحد أتباعه (٢٥٠ فى الغالب) الثوار اليونان برواية له وصف فيها جزيرة مباركة فى المحيط الهندى (قد تكون جزيرة سرنديب) قال إن الناس كلهم فيها أكفاء ، لا فى الحقوق فحسب ، بل فى مقدرتهم وذكائهم ؛ وإنهم كلهم يعملون على قدم المساواة ، ويقتسمون ثمار عملهم بالتساوى ، ويشتركون

كلهم إذا جاء دورهم فى تصريف شئون الحكومة ، وإن هذه الجزيرة لم يكن فيها غنى ولا فقر ، ولا حرب بين الطبقات ، وإن الطبيعة تنتج فيها الفاكهة موفورة بلا حاجة إلى جهد ، وإن الناس يعيشون فيها متآخين متحابين[٢٠] .

وأممت بعض الحكومات عددا من الصناعات : فاستولت حكومة پريني على مصانع الملح ، وأممت ميليطس مصانع النسيج ، ورودس ونيدس مصانع الفخار ؛ ولكن الحكومات لم تكن تؤدى للعمال أجورا أعلى مما يؤديه أصحاب الأعمال الشحيحون ، وكانوا يمتصون من كدح عبيدهم كل ما يستطيعون امتصاصه من المكاسب . واتسعت الهوة بين الأغنياء والفقراء[٢١] ، وأضحت حرب الطبقات أشد مرارة مما كانت قبل ؛ فأخذت كل مدينة قديمة كانت أو حديثة تردد أصداء كراهية الطبقات بعضها لبعض ، وكانت هذه الكراهية تتمثل فى الفتن ، والمذابح ، وأعمال القمع ، والنفى ، والقضاء على الأنفس والثمرات . فإذا ما انتصر فيها حزب طرد الحزب الآخر وصادر أملاكه ؛ فإذا عاد إلى المنفيين سلطانهم ثأروا لأنفسهم مثل هذا الثأر وقتلوا أعداءهم ، ألا فليتصور القارئ أى استقرار يمكن أن يتاح لنظام اقتصادى يتعرض لأمثال هذه الاضطرابات والهزات العنيفة . وقد وصل ما حل من الخراب ببعض المدن اليونانية القديمة من جراء النزاع بين الطبقات إلى درجة أن هجرتها الصناعات وفر منها الناس ، وأن نمت الأعشاب فى شوارعها وأقبلت عليها الماشية ترعاها[٢٢] . وكتب پوليبيوس حوالى عام ١٥٠ ق . م يصف بعض مظاهر هذه الحرب كما يراها رجل محافظ ثرى :

« ولما أن هيئوا (أى الزعماء المتطرفون) نفوس العامة إلى الجشع والرشوة ، قضى على ما فى الديمقراطية من فضيلة ، واستحالت حكم العنف والاستبداد . ذلك أنه إذا اعتادت الغوغاء أن تطعم على حساب غيرها ، وأن تُبعث فيها الآمال بأن تعيش من مال جيرانها ، ثم وجدت زعيما أوتى قدرا كافيا من

الطموح والجرأة . . إذا حدث هذا نشأ عنه حكم العنف . وحينئذ تقوم الجمعيات الصاخبة ، والمذابح ، والنفى ، وإعادة توزيع الأرض[٢٣] .

وكانت الحروب ونزاع الطبقات هى التى أضعفت بلاد اليونان الأصلية حتى جعلتها غنيمة سهلة لرومة . ذلك أن قسوة المنتصرين وغلظة قلوبهم المتناهية ، وتدمير الغلات ، والكروم ، والبساتين ، وتخريب الضياع ، وبيع الأسرى فى سوق العبيد قد قضى على إقليم فى إثر إقليم ، وترك البلاد أشبه بقشرة فارغة أمام العدو الأخير . وهل تقوى أرض أفقرها التنازع والتباغض ، واكتسحت تربتها عوامل التعرية ، وقطعت غاباتها ، ولم يكن يزرع أرضها إلا المستأجرون الفقراء أو الأرقاء الكليلون ، هل تقوى أرض هذا شأنها على منافسة السهول الفيضية التى تشقها أنهار العاصى ، والفرات ، ودجلة ، والنيل . أضف إلى هذه أن المدن الشمالية لم تعد كما كانت من قبل قائمة على الطرق التجارية الكبرى ، وأنها قد فقدت أساطيلها الحربية ، ولم يكن فى مقدورها أن تشرف على موارد الحبوب وطرقها وهى الموارد والطرق التى كانت أثينة واسپاطة تسيطران عليها فى أيام عظمتهما الإمبراطورية . وانتقلت مراكز القوة ، بما فيها قوة الإبداع الأدبية والفنية ، إلى أماكنها القديمة فى آسية ومصر ، وهى المراكز التى أخذت منها بلاد اليونان فى تواضع وخشوع آدابها وفنونها قبل ذلك الوقت بألف عام .

الفصل الثالث

أخلاق الانحلال

لقد عجل فشل نظام دول المدائن تدهور الدين القديم ؛ ذلك أن آلهة المدينة قد ثبت عجزها عن حمايتها ، ومن أجل هذا تزعزع إيمان الناس بهذه الآلهة . وانختلط أهلها بالتجار الأجانب الذين لم يكن لهم نصيب فى حياة البلد المدنية والدينية والذين انتشر تشككهم ولهوهم بين المواطنين . على أن أساطير الآلهة المحلية القديمة قد بقيت بين الفلاحين والسذج من سكان المدن ، وبقيت كذلك فى الطقوس الرسمية ، وظل المتعلمون يستخدمونها فى الشعر والفن ؛ أما من تحررت عقائدهم بعض التحرر من سلطانها فأخذوا يهاجمونها بعنف . غير أن الطبقات العليا ظلت تستمسك بها وتستعين بها على حفظ النظام ، وتقاوم الإلحاد الصريح وتعده شاهداً على فساد الذوق . ولما قامت دول كبيرة أدى قيامها هذا إلى توحيد الآلهة واندماجها هى الأخرى ، وسرت فى نفوس الناس نزعة غامضة نحو التوحيد ، وحاول الفلاسفة أن يصوغوا للأدباء مذهب وحدة الوجود فى صيغة لا تتعارض تعارضا صريحا كل الصراحة مع العقائد الثابتة القديمة . من ذلك أن أوفروس Euphemerus أحد سكان مسانا فى صقلية نشر حوالى عام ٣٠٠ ق.م كتابه المسمى هيرا أنجرافا Hiera Anagrapha (ومعناه الحرفى الكتابات أو السجلات المقدسة) ، والذى قال فيه إن الآلهة إما أن تكون قوى طبيعية جسدها الناس ، وإما أن تكون — وهذا هو الأغلب الأعم — أبطالا آدميين ألّههم خيال الشعب أو عبدهم اعترافا بفضلهم على بنى الإنسان ؛ وإن الأساطير إن هى إلا استعارات وتشبيهات ، وإن الاحتفالات الدينية كانت فى الأصل مراسم تخليداً لذكرى الموتى . فزيوس

مثلا كان فاتحا مات فى كريت وأفروديتى كانت موجدة الدعازة ونصيرتها ، ولم تكن قصة كرونوس وأكله أبناءه إلا طريقة للقول بأن أكل اللحوم البشرية فى الزمن القديم عادة متبعة على ظهر الأرض . وقد كان لهذا الكتاب أثر قوى فى نشر النزعة الإلحادية فى بلاد اليونان فى القرن الثالث قبل الميلاد(*)(٢٣).

بيد أن الناس لا يستريحون للتشكك لأنه يترك قلب الإنسان وخياله فارغين ، وهذا الفراغ لا يلبث أن يجذب إليه عقيدة جديدة مشجعة ؛ وقد مهدت انتصارات الفلسفة وانتصارات الإسكندر السبيل إلى الطقوس الدينية الجديدة . وسادت أثينة فى القرن الثالث عقائد دينية غريبة اضطربت لها أحوالها ، وكانت كلها تقريبا ، تبشر بالجنة وتنذر بالجحيم ، حتى أحس أبيقور ، كما أحس لكريشيوس فى رومة فى القرن الأول ، أن من واجبه أن يندد بالدين ويقول إنه يتعارض مع طمأنينة العقل ومتعة الحياة . ومن أجل هذا أصبحت المعابد الجديدة ، حتى فى أثينة نفسها ، تشاد عادة لإيزيس ، وسراپيس Seropis ، وبنديس Bendis وأدنيس ، وغيرهار من الأرباب الأجانب . وانتشرت الطقوس الإليزيية الخفية وأخذ الناس يحاكونها فى مصر ، وإيطاليا ، وصقلية ، وكريت . وظلت عبادة ديونيشيوس إليوثيريوس — المحرر — واسعة الانتشار حتى اندمج هذا الإله فى المسيح . وانضوى تحت لواء الأرفية أتباع جدد حين جذبت اتصالها بالأديان الشرقية التى نشأت هى عنها . لقد كان الدين القديم أرستقراطيا ، وكان يحرم على الأجانب والرقيق أن يكونوا من أتباعه ، أما الطقوس الشرقية الجديدة فكانت تقبل بين أتباعها جميع الرجال والنساء ، ومنهم الأجانب ، والأرقاء ، والأحرار ، وكانت تعد الناس على اختلاف طبقاتهم بالخلود فى الدار الآخرة .

(*) وربما كان هذا الكتاب تعبيرا عن العادة الهلنستية عادة تأليه الملوك ومشجعا لها فى الوقت نفسه .

وانتشرت الخرافات والأوهام فى الوقت الذى بلغ فيه العلم أوجه ، وإن الصورة التى رسمها ثاوفراسطوس « للرجل المخرف » لتكشف عن رقة الغشاء الثقافى فى حاضرة النور والفلسفة نفسها . فلقد كان العدد ٧ عدداً مقدسا إلى حد لايتصوره العقل ؛ فكان ثمة سبعة كواكب سيارة ، وسبعة أيام فى الأسبوع ، وسبع عجائب فى العالم ، وسبعة أعمار للإنسان ، وسبع سماوات ، وسبعة أبواب للجحيم . وانتعش علم التنجيم على أثر انتشار التجارة مع بابل ، وكان من العقائد المسلم بها والتى لا تقبل الجدل أن النجوم آلهة تتصرف فى مصائر الأفراد والدول صغيرها وكبيرها ، وحتى خلق الإنسان كان يحدده الكوكب الذى ولد الإنسان فى مطلعه ، فيكون مرحا إذا ولد والمشترى فى السماء ؛ أو نشطا زواغا ، إذا كان فيها عطارد ، أو نكداً إذا كان فيها زحل(*) . وحتى اليهود أنفسهم كانوا يعبرون عن الأمانى الطيبة بقولهم : « مزول — توف Mazzol-Tof » نرجو أن يكون كوكبك سعدا(٢٤) » . وكان علم الفلك يكافح فى سبيل الحياة ضد التنجيم ، ثم استسلم له آخر الأمر فى القرن الثانى بعد الميلاد . وكان الناس فى جميع أنحاء العالم الهلنستى يعبدون تيكى Tyche إله الفرص .

وليس فى مقدور الإنسان أن يدرك عظم الأثر الذى يحدثه فى الأمة موت دينها التقليدى إلا إذا أوتى خيالا قويا لا يكل ، أو قدرة فائقة على الملاحظة . لقد قامت الحضارة اليونانية القديمة على الإخلاص لدولة المدينة والتفانى فى حبها ، وكانت العقائد الخرافية من أقوى العوامل فى تدعيم المبادئ الأخلاقية وإن كانت هذه المبادئ متأصلة فى القصص الشعبى والمعارف الشعبية أكثر من تأصلها فى العقيدة الدينية . لكن الرجل اليونانى المتعلم قد خسر فى الوقت الذى نتحدث عنه دينه ووطنيته ؛ ومحت الإمبراطوريات الحدود المدنية ، وأضحت

(*) ويطلق على هذه الصفات بالإنجليزية Mercurial, Jovial على التوالى .

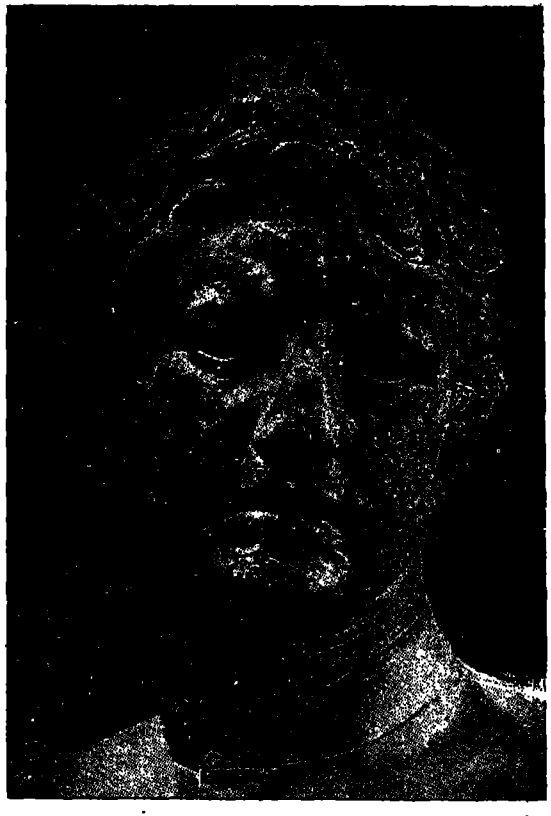

(شكل ٤٧) رأس مليجر ، نسخة رومانية منقولة عن اسكوباس (؟) من بيت آل مديشي بروما

(شكل ٤٨) رأس فتاة من خيوس (طشيوز ؟) (متحف بسطن)

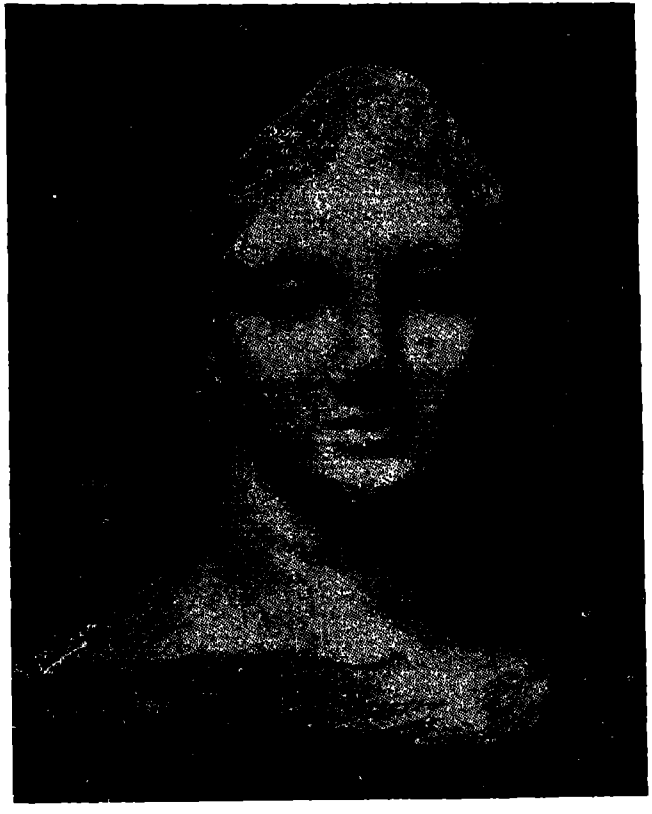

المبادئ الخلقية ، وشئون الزواج ، والأبوة ، والقوانين ، بسبب انتشار المعارف من الأمور الدنيوية . وقد كان عصر الاستنارة فى أيام پركليز من أسباب تدعيم الأخلاق إلى حين ، وهذا شبيه بما حدث فى أوربا الحديثة ؛ فقد نمت المشاعر الإنسانية ، وأيقظت — دون جدوى — فى نفوس الناس استياء شديداً من الحروب ، ونشأت عادة التحكيم فى المنازعات بين المدن والأفراد ، وأصبحت الآداب أظرف مما كانت وأكثر صقلا ، وصار الجدل أكثر تحضراً ، وانتقلت آداب اللياقة والمجاملات اللطيفة من حاشيات الملوك ، حيث كان الباعث عليها السلامة الشخصية والهيئة الملكية ، إلى أفراد الشعب ، فلما أن جاء الرومان دهش اليونان أشد الدهشة من سوء آدابهم وغلظة طباعهم . لقد أضحت الحياة فى بلاد اليونان أرق مما كانت وأكثر تهذيباً ، وكان النساء يستمتعن بقسط أوسع من الحرية فى غدوهن ورواحهن ، ويبعثن فى الرجال الميل إلى الظرف والرشاقة ؛ فأخذوا يحلقون لحاهم وخاصة فى بيزنطية وزودس ؛ حيث كانت القوانين تحرم هذا العمل وتعده تشبها بالنساء[٢٥] . غير أن الحرى وراء اللذات قد أنهك حياة الراشدين من أفراد الطبقات العليا . ولم تجد المشكلة القديمة مشكلة الآداب والقوانين الأخلاقية ، وكيف يوفق الناس بين أبيقورية الفرد الفطرية ورواقية الدولة الضرورية ، لم تجد هذه المشكلة حلا لها فى الدين ، أو السياسة ، أو الفلسفة .

وانتشر التعليم ولكن انتشاره كان رقيقاً غير عميق ، فقد كان يفعل ما يفعله فى جميع العصور التى كانت الغلبة فيها للعقل فيعنى بالمعارف أكثر مما يعنى بالأخلاق ، ولذلك أخرج جماهير غفيرة من أنصاف المتعلمين الذين انتزعوا من العمل ومن الأرض ، وأخذوا يطوفون وهم ساخطون حيث يجب ألا يكونوا ، كأنهم بضاعة سائبة فى سفينة الدولة . وأنشأت بعض المدن مثل ميليطس وزودس مدارس عامة تنفق عليها الدولة ، وكان الذكور والإناث

يتعلمون مجتمعين فى مدارس تيوس Teos ، وطشيوز ، وكانت تعطى للجنسين فرص متكافئة لا نظير لها إلا فى اسپبارطة[٢٦] . وتطورت مدارس الرياضة البدنية حتى أضحت مدارس عليا أوكليات جامعية بها غرف للتدريس ، وقاعات للمحاضرات ومكتبات . كذلك ازدهرت ساحات التدريب الرياضى وأضحى لها شأن فى بلاد الشرق ؛ ولكن الألعاب العامة اضمحلت حتى أصبحت مباريات بين المحترفين وخاصة فى الملاكمة ، التى كانت قوة الجسم فيها أهم من المهارة والحذق ؛ وأصبح اليونان أمة من النظارة يقنعون بأن يشاهدوا ولا يعملوا وقد كانوا فى ماضى أيامهم أمة من الرياضيين .

وتحللت الأخلاق الجنسية من القيود أكثر من تحللها فى عصر بركليز نفسه ، وإن كان هذا التحلل لم يقلل من انتشار اللواط بل ظل كما كان فى سابق الأيام . انظر إلى قول شميثا Simaetha فى بعض قصائد ثاوفراطوس : « إن الشاب دلفس Delphis يحب ، ولكنى لا أعرف أيحب امرأة أم رجلا [٢٧]» . وظلت الحظية صاحبة السلطان الأعلى ، وهل أدل على ذلك من أن دمتريوس پليوكرتيز جبى من الأثينيين ضريبة مقدارها مائتى وزنة وخمسين (٧٥٠,٠٠٠ ريال أمريكى) ثم وهبها لعشيقته لاميا Lamia بحجة أنها فى حاجة إلى هذا المال لتبتاع به ما يلزمها من الصابون ؛ وقال الأثينيون الغضاب « إن هذه السيدة لابد أن تكون قذرة إلى أبعد حدود القذارة » وأصبح الناس لا يتأففون من رقص النساء العاريات بل يرونه من العادات المألوفة ، وكان هذا يحدث أمام أحد ملوك مقدونية[٢٩] . وقد صور مننذر فى مسرحياته الحياة الأثينية بأنها حياة تدور كلها حول السفاسف ، والغواية والزنى .

واشتركت المرأة اليونانية اشتراكا نشيطاً فى الأعمال الثقافية فى ذلك العصر ، وكانت لهـا جهود موفقة فى الأدب والعلم والفلسفة والفن ، فكانت أرسطوداما Aristodama الأزميرية تنشد أشعارها فى طول بلاد اليونان وعرضها وتقابل أينما حلت بأعظم مظاهر التكريم ؛ ولم يتردد بعض

الفلاسفة ، كأبيقور مثلا ، فى قبول النساء فى مدارسهم . وبدأ الأدب يعنى بوصف جمال المرأة الجسمانى بعد أن كان من قبل يعنى بقيمتها وفتنتها من ناحية الأمومة ، ونشأت العبادة الأدبية للجمال النسوى فى ذلك العهد إلى جانب أشعار الحب الروائى وقصصه . وقد صحب هذا التحرير الجزئى للمرأة ثورة على قصر وظيفتها على الأمومة ، وأضحى تحديد النسل من أهم الظواهر البارزة فى ذلك العصر ، فلم يكن يعاقب على الإجهاض مثلا إلا إذا لجأت إليه المرأة على غير إرادة زوجها ، أو بتحريض من أغواها ؛ وكان الطفل فى كثير من الأحيان يعرض للجو القاسى ، ولم يكن عدد الأسر التى تربى أكثر من بنت والحدة فى المدن اليونانية القديمة يزيد على واحد فى المائة من مجموع أسرها ؛ وفى ذلك يقول بوسيدبوس Posidippus ، « وحتى الرجل الغنى نفسه ، كان يعرض ابنته للجو القاسى على الدوام . وكان يندر وجود أخوات للأبناء ، وكثر عدد الأسر التى لم يكن لها أبناء قط أو كان لكل منها ولد واحد . وفى وسعنا أن نتتبع من النقوش الباقية إلى هذه الأيام خصوبة تسع وسبعين أسرة من سكان ليليطس فى عام ٢٠٠ ق. م : لقد كان لاثنتين وثلاثين من هذه الأسر طفل واحد ، ولإحدى وثلاثين منها طفلا ؛ وكان مجموع أبناء هذه الأسر جميعها مائة وثمانية عشر ولدا وثمانيا وعشرين بنتا[٣٠]. وفى إرتريا Eretrfa لم يكن عدد الأسر التى لها ولدان يزيد على أسرة واحدة فى كل اثنتى عشرة أسرة ، وقلما كان لأسرة واحدة ابنتان . وكان الفلاسفة يتجاوزون عن قتل الأطفال بحجة أنه يخفف من ضغط السكان على موارد الرزق ؛ فلما أن لجأت الطبقات الدنيا إلى هذه العادة وأسرفت فيها تساوت نسبة الوفيات مع نسبة المواليد . ولم يعد فى مقدور الدين أن يتغلب على مقتضيات الراحة ونفقات الأبناء ، مع أن الدين نفسه كان فى الأيام الخالية يخيف الناس ويحذرهم من قلة النسل حتى تجد أرواحهم من يعنى بها بعد موتهم . وحل المهاجرون فى المستعمرات محل الأسر القديمة ، فلما أن نقص عدد المهاجرين فى أتكا والپلوبونيز إلى أدنى حد قل عدد السكان كثيراً . ورأى

ورأى ذلك فليب الخامس فحرم تحديد عدد أفراد الأسر فى مقدونية ، وزاد بذلك عدد الرجال بنسبة خمسين فى المائة مما كانوا عليه قبل هذا الأمر(٣١) ؛ وفى وسعنا أن نستدل من هذا على مبلغ ما وصلت إليه عادة تحديد النسل حتى فى مقدونية التى كانت لاتزال نصف بدائية ، وفى هذا المعنى يقول پولبيوس فى عام ١٥٠ ق . م :

لقد سرت فى جميع بلاد اليونان موجة من نقص المواليد ومن قلة السكان تبعاً لهذا النقص ، نشأ عنها أن أقفرت المدن من السكان وأجدبت الأرض فلم تعد تخرج ثمرها ... ذلك أن الناس قد انغمسوا فى الترف والبخل والكسل ، فلم يعودوا يرغبون فى الزواج ، أو فى تربية الأبناء إذا تزوجوا ، وأقصى ماكانوا يسمحون به أن يكون لهم من الأبناء ولد أو ولدان حتى يظلوا يستمتعون برخاء العيش ، وحتى يربوا هؤلاء الأبناء ليتلفوا ما يتركون لهم من المال . واستشرى هذا الفساد بسرعة وإن تكن غير ملحوظة ، وكان يحدث أحياناً أن يهلك أحد الولدين فى الحرب وأن يقضى المرض على الولد الثانى ، فيكون مصير البيت الخراب ... وهكذا نضب معين المدن وحل بها الوهن شيئاً فشيئاً(٣٢) .

الفصل الرابع

الثورة فى اســـپارطة

وفى هذه الأثناء كان تركز الثروة فى أيدى عدد قليل من الأفراد يثير النزاع الأبدى بين الطبقات فى جميع أنحاء اليونان . وكان من أثر هذا التركز فى اسپارطة أن بذلت محاولتان لإصلاح الحال بإحداث انقلاب تام فى أحوال تلك المدينة . لقد استطاعت اسپارطة بفضل عزلتها بين الحواجز الجبلية أن تحافظ على استقلالها ، وأن تصد جيوش مقدونية ، وتهزم جيش پيروس (٢٧٢) الضخم ببسالة أبنائها وشدة بأسهم . ولكن نهم الأقوياء أحدث فى داخل البلاد من الخراب ما لم تقو جيوش الأعداء على إحداثه فيها من الخارج . فقد ألغى قانون ليقورغ الذى كان يمنع انتقال الأرض من أيدى ملاكها بالبيع أو تقسيمها بالوصية(*) ، واستخدم الاسپارطيون ماعاد عليهم من الثروة بطريق الإمبراطورية أو الحرب فى شراء هذه الأراضى من أصحابها(٣٣) . وما وافت سنة ٢٤٤ حتى آلت أراضى لكونيا الزراعية التى تبلغ مساحتها ٧٠٠,٠٠٠ فدان إلى مائة أسرة لا أكثر(٣٤) ، وحتى لم يحتفظ بحقوق المواطنية إلا سبعمائة رجل ، وحتى هؤلاء السبعمائة لم يكونوا يطعمون مجتمعين كما كانوا يطعمون من قبل . ذلك أن الفقراء لم يستطيعوا تقديم قسطهم من الطعام ، وأن الأغنياء كانوا يفضلون ولائمهم الخاصة . وحلت الفاقة بمعظم الأسر التى كانت من قبل تستمتع بالحقوق السياسية ، وأخذت تطالب بإلغاء الديون وإعادة توزيع الأراضى على الأهلين .

(*) ولعل سبب إلغائه أنه أدى إلى تحديد عدد أفراد الأسرة ؛ كما حدث فى فرنسا الحديثة .

وكان من فضائل الملكية أن محاولة إصلاح هذه الحال قد قام بها ملوك اسپارطة . ذلك أن أچيس الرابع Agis IV وليونداس قد ارتقيا عرش المدينة المزدوج فى عام ٢٤٢ . وأيقن أجبس أن ليقورغ كان يقصد أن تكون الأراضى موزعة بالتساوى بين جميع الأحرار فاقترح أن يشرع فى توزيعها بينهم من جديد ، وأن تلغى جميع الديون ، وأن يعاد النظام شبه الشيوعى الذى وضعه ليقورغ . وأيد الملاك الذين كانت أرضهم مرتهنة اقتراح إلغاء الديون ؛ فلما أن ووفق على المشروع عارضوا أشد المعارضة كل ما عداه من عناصر إصلاحات أچيس ؛ ثم اغتيل أجيس نفسه بتحريض ليونداس ، واغتيلت معه أمه وجدته ؛ وكانت كلتاهما قد نزلت عن ضياعها طائعة مختارة لتوزع على أبناء الشعب . وكانت النساء أنبل الشخصيات فى هذه المسرحية الملكية ؛ فقد كانت كلونيس Chilones ابنة ليونداس زوجة كليمبروتوس Cleombrotus الذى يؤيد أجيس . ولما نفى ليونداس واغتصب كليمبروتوس الملك هجرت كلونيس زوجها الظافر لتشترك فى النفى مع زوجها ، ولما أن استعاد ليونداس السلطة ونفى كليمبروتوس ، آثرت كلونيس أن تنفى مع أبيها(٣٥) .

وأراد ليونداس أن يضم لأملاك أسرته ما كان لأرملة أچيس من ثروة طائلة ، فأرغمها على أن تتزوج بابنه كليمنيس Cleomenes . ولكن كليمنيس هام بحب زوجته ، واستلهم منها آراء الملك القتيل ؛ ولما أن اعتلى العرش باسم كليمنيس الثالث ، قرر أن ينفذ إصلاحات أچيس . واستطاع أن يضم الجيش إلى جانبه ببسالته فى الحرب ، وأن يكسب تأييد الشعب ببساطة معيشته ، فلما تم له ذلك ألغى الأفورية الأحركية بحجة أن ليقورغ لم يوافق عليها قط ، وقتل أربعة عشر من الذين عارضوا هذا الإلغاء ، ونفى منهم ثمانين ، وألغى جميع الديون ، ووزع الأراضى على الأهلين الأحرار ، وأعاد نظام ليقورغ إلى ما كان عليه من قبل . ولم يكتف بهذا ، بل شرع

يفتح البلوبونيز أمام الثورة . ورحب به الصعاليك فى كل مكان. ورأوا فيه منقذاً ومحرراً لهم ، واستسلمت له عدة مدن وهى فرحة مستبشرة ، فاستولى على أرجوس ، وپلينى ، وفليوس Philius ، وإپدورس ، وهرميونى Hermione ، وتريزين Troezen ؛ وحتى كورنثة الفتيــة استسلمت له هى الأخرى فى آخر الأمر . وانتشرت عدوى خطته هذه فى كل مكان : فى بوئوشيا امتنع المدينون عن الوفاء بديونهم ، واستولت الدولة على الأموال لاسترضاء الفقراء؛ وفى مجالوپوليس Megalopolis قام الفيلسوف سرسداس Cercidas يدعو الأغنياء أن يمدوا يد المعونة للفقراء قبل أن تطيح الثورة بجميع أموالهم[٣٦] . ولما أن غزا كليمنيس آخيه Achaea وهزم أراطوس ، دب الرعب فى قلوب الطبقات العليا جميعها خوفا على أملاكها، واستغاث أراطوس بمقدونية ولبى نداءه أنتجونس دوسن Antigonus Doson ؛ وهزم كليمنيس فى سلاسيا Sellsia (٢٢١) ، وأعاد النظام الألجركى فى لسديمون . وفركليمنيس إلى مصر ، وحاول دون جدوى أن يستعين ببطليموس الثالث ، كما حاول دون جدوى أن يدفع أهل الإسكندرية إلى الثورة ، فلما أخفق فى كلتا المحاولتين لم يجد بدا من الانتحار[٣٧] .

وظلت حرب الطبقات مستعرة نارها، فخرج أهل اسپارطة على حكومتهم بعد جيل واحد من حكم كليمنيس ، وأقاموا دكتاتورية ثورية ، فما كان من ڤلوپيمين الذى خلف أراطوس فى رياسة العصبة الآخية إلا أن غزا لكونيا ، وأعاد إليها حكم الملاك . وما كاد ڤلوپيمين ينصرم أجله حتى ثار الشعب مرة أخرى ، وأقام مكانه نابيس Nabis حاكما بأمره (٢٠٧) . وكان نابيس هذا سورى الموطن سامى الجنس، أخذ أسيرا فى الحرب ، وبيع عبدا فى مجالوپوليس . ولم يطلق صبرا على كفايته المقموعة فانتقم لنفسه بتنظيم ثورة بين الهيلوتين، ولما تم له الأمر منح المواطنية الاسپارطية لجميع الأحرار ، وقال للهيلوتين كونوا

أحرارا فكانوا . ولما وقف الأغنياء فى وجهه صادر أملاكهم وقطع رؤوسهم . وانتشرت أنباء أعماله هذه فى خارج اسپارطه ؛ ووجد من أيسر الأمور أن يفتح بمعونة الطبقات الفقيرة مدائن أرجوس، ومسينيا ، وإليس ، وبعض أركاديا . وكان أينما سار يؤم المزارع الكبرى ، ويعيد توزيع الأراضى على الأهلين ، ويلغى الديون[٣٨] . ورأت عصبة الدول الآخية أنها عاجزة عن القضاء عليه فطلبت العون من رومة . ولبى فلامينوس طلبه ، ولكن نابيس قاومه مقاومة عنيفة أرغمت الرومان على قبول هدنة رضى بمقتضاها نابيس أن يطلق سراح الأغنياء المسجونين ، ولكنه اشترط أن يظل محتفظا لنفسه بالسلطة . وفى هذه الأثناء اغتال نابيس مغتال بتحريض عصبة الدول الإيتولية (١٩٢)[٣٩] . وبعد أربع سنين من ذلك الوقت زحف فلپومين مرة أخرى على اسپارطة ، وأعاد السلطة إلى الملاك ، وألغى أنظمة ليقورغ ، وباع ثلاثة آلاف من أتباع نابيس فى أسواق الرقيق.. وهكذا قضى على الثورة ، ولكن اسپارطة قضى عليها أيضاً ؛ نعم إن المدينة ظلت قائمة ، ولكنها لم يكن لها بعدئذ شأن فى تاريخ بلاد اليونان .

الفصل الخامس

سيادة رودس

انتقلت التجارة ورؤوس الأموال من بلاد اليونان القارية وأخذت تبحث لها عن ملاجئ جديدة فى جزائر بحر إيجة ، وذلك لأنها خشيت عنف الانقسامات الحزبية ، ولأن حركات السكان اجتذبتها إلى تلك الجزائر. فازدهرت ديلوس فى القرن الثانى ، وقد كانت من قبل موفورة الثراء بسبب وجود هيكل أپلوبها ؛ وأضحت ثغراً حراً تحت حماية رومة وإن كانت أثينة هى التى تصرف شئونها . وازدحمت الجزيرة الصغيرة بالتجار الأجانب ، وبمكاتب رجال الأعمال وبالقصور ، والأكواخ ، والهياكل المختلفة التى أقيمت للآلهة الأجنبية .

وبلغت رودس غاية مجدها فى القرن الثالث ، وأضحت بإجماع الآراء أجمل مدائن هلاس وأعظمها حضارة . وقد وصف استرابون الثغر الكبير بأنه « يفوق سائر الثغور فى مرافئه ، وطرقه ، وأسواره ، وما أدخل عليه من الإصلاحات ، حتى لأعجز عن القول بأن مدينة أخرى تضارعه أو تكاد تضارعه[4] » .

وكانت رودس ذات موقع طيب فى ملتقى الطرق التجارية التى تخترق البحر الأبيض المتوسط ، يمكنها من أن تفيد من التجارة الآخذة فى الانتشار والتى يسرت سبلها فتوح الإسكندر ، بين أوربا ، ومصر ، وآسية ، ومن أجل هذا حلت مرافئ رودس الرحبة محل مرافئ صور وپيرية ، وأضحت المرافئ التى يعاد منها شحن البضائع ، كما أضحت مكان المقاصة التجارية والمالية والعاملة على تنظيمها فى شرق البحر . وكان لتجارها سمعة حسنة فى الأمانة . ولمصارفها وحكومتها شهرة طيبة فى الاستقرار ، وسط عالم كله خيانة وتقلقل . وأفادت

الجزيرة كثيراً من هذه السمعة الحسنة ، وكان لها عمارة بحرية قوية يسيرها ملاحون من مواطنيها ، استطاعت أن تطهر بحر إيجة من القراصنة ، وتؤمن السبل البحرية لجميع السفن التجارية لسائر الأمم على قدم المساواة ، وأن تضع قوانين ضالحة للملاحة تدل على عقلية ناضجة ، رضيت بها سائر السفن التجارية ، وظلت هذه القوانين هي المسيطرة على تجارة البحر الأبيض قروناً عدة ، ثم أضحت جزءاً من القوانين التجارية الرومة والقسطنطينية والبندقية .

وبعد أن حررت رودس نفسها من سيطرة مقدونية بفضل مقاومتها الباسلة لدمتريوس پليوكريتيس (٣٠٥) ، وجهت سفينتها السياسية توجيهاً ناجحاً وسط بحر السياسة المضطرب فى ذلك العصر ، فاحتفظت بحيادها احتفاظا حكيما ولم تتورط فى الحرب إلا لتحول بين ازدياد سلطان دولة معتدية يخشى بأسها ، أولتحفظ للبحار حريتها . وقد ضمت كثيراً من مدن بحر إيجة وألفت منها « عصبة جزرية » ، وكانت فى ممارستها حقوق السيادة عليها عادلة إلى حد لم تشك أية واحدة منها فيما لها من حق الزعامة عليها . وكانت لها حكومة ذات نظام أرستقراطى على أساس دمقراطى ، شبيهة بحكومة رومة فى عصر الجمهورية ؛ وكانت تحكم مدائن لندس ، وكميروس Camirus ، ويالیسوس Ialysus ، ورودس مجتمعة بمهارة وعدل نسبى ، ومتحف المقيمين فيها من الأجانب من الامتيازات ما لم تمنحه أثينة من هاجر إليها من الغرباء ؛ وبسطت حمايتها على عدد كبير من الأرقاء ، ولما أن تعرضوا للخطر لم تتردد فى تسليحهم للدفاع عن أنفسهم ، وفرضت على أغنياء المدينة أن يعنوا بالفقراء من أهلها(٤١) . وكانت الدولة تواجه نفقاتها بفرض ضريبة مقدارها اثنان فى المائة على الصادرات والواردات ؛ وكانت تقرض المال بسخاء ، ومن عمر فائدة فى بعض الأحيان ، إلى المدن إذا حلت بها الأزمات .

ولما أن خرب الزلزال رودس نفسها (٢٢٥) ، هب جميع العالم اليونانى لمعونتها ، وذلك لأن اليونان على بكرة أبيهم كانوا يعتقدون أن اختفاءها من وسط بحر إيجة سيؤدى لامحالة إلى الفوضى التجارية والسياسية . فأرسل هيرون الثانى مثلا مائة وزنة ذهبية (٣٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى) ، وأعاد فى المدينة نحت طائفة من التماثيل تمثل أهل رودس يتوجهم السرقوسيون ، وأرسل بطليموس الثالث ثلثمائة وزنة(*) ، وأنتجونس الثالث ثلاثة آلاف ، ومعها مقادير كبيرة من الخشب والقار لتستخدمها فى البناء ، وتبرعت زوجته الملكة كريسيس Chryseis بثلاثة آلاف وزنة من الرصاص ، وبما يعادل ثمانية وعشرين أردباً من الحبوب ؛ وبعث سلوقس الثالث بضعفى هذا القدر وبعشر سفن ذات خمسة صفوف من المجاديف كاملة العدة . « أما المدن التى قدمت كل منها ما يتناسب مع قدرتها المالية فهذه يخطئها الحصر على حد قول پوليبوس(٤٢)» لقد كانت هذه الفترة مشكاة نيرة فى دياجير التاريخ السياسى المظلمة ، وكانت فرصة من الفرص القليلة النادرة التى فكر فيها العالم اليونانى وعمل يداً واحدة .

(*) كانت الوزنة اليونانية تزن نحو ثمانية وسبعين رطلا مصريا . (المترجم)